مجلة كلية الآداب جامعة بورسعيد
https://jfpsu.journals.ekb.eg/

P-ISSN: 2356-6493 E-ISSN:2682-3551

المكوّن البيئوي ودوره الحجاجي في رحلتي ابن جبير وناصر خُسرو

شيماء أحمد علي طه

معيدة بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب جامعة بورسعيد

shimaakhaled012@hotmail.com

10.21608/jfpsu.2025.388562.1441

تاريخ الإرسال : ٢٠٢٥/٥/٢٤م **تاريخ القبول :** ٢٠٢٥/٦/٢٠م

تاريخ النشر : ٢٠٢٥/٧/١٧م

This is an open access article licensed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (CC BY 4.0). http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

المكوّن البيئوي ودوره الحجاجي في رحلتي ابن جبير وناصر خُسرو

ملخص:

يهدف هذا البحث وهو يندرج ضمن حقل البلاغة الجديدة[1]إلى رصد مكوّن هام من مكوّنات الحجاج البلاغي، وهو: المكوّن البيئوي، وبيان ما يحتويه من مكامن الإقناع على المستويين النصّي والجمالي، ولعل ندرة دراسة تأثير الجانب البيئوي في الخطاب الحجاجي تستدعي أن ترصد له هذه الدراسة التي تستدعي إضاءة المكوّنات البيئوية في رحلتي **ابن جبير وناصر خُسرو**؛ ولأن الرحلة نص يُكتب من واقع المعايشة والملاحظة المباشرة، أو من خلال توظيف التخيلات كما في رحلة **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب للغرناطي**، فإنها تتيح للكاتب أن يعرض مواقفه وآراءه في ضوء ما يشاهده من ظواهر بيئوية، وما يرصده من مظاهر حضارية، وهذه المواقف والآراء تشكل أدوات إقناعية من شأنها أن تسهم في تشكيل الخطاب الحجاجي في أدب الرحلة؛ إذ إن فهم البيئة والسياق الحضاري الذي يكتب من خلاله الرحالة لا يُسهم فقط في كشف خلفيات النص، بل يبين أيضًا كيف يوظف تلك العناصر كأدوات حجاجية لإقناع المتلقي، أو تمرير أفكاره، أو الدفاع عن مواقفه؛ بذلك يفتح البحث أفقًا لفهم أدب الرحلة باعتباره خطابًا يحمل أبعادًا حجاجيَّة تصاحبه أدوات المرسِل في الإقناع والتأثير، ومحاولة الوقوف على مدى تأثير البيئة والسياق الحضاري في توجيه خطاب الرحلة نحو إقناع المتلقي والتأثير عليه.

الكلمات المفتاحية: ابن جبير، ناصر خُسرو، الحجاج البلاغي، الإقناع، النقد البيئوي.

[1] البلاغة الجديدة أسس لها شاييم بيرلمان وتيتكا تحت مسمّى الحجاج في كتاب: المصنف في الحجاج، ترجمة: محمد الولي، ط. دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٢٣م.

The Environmental Component and Its Argumentative Role in the Travel Narratives of Ibn Jubayr and Naser Khosrow

Abstract

This study, which falls within the scope of New Rhetoric, seeks to examine a significant element of rhetorical argumentation: the environmental component. It aims to uncover its persuasive potential on both the textual and aesthetic levels. Given the scarcity of research addressing the impact of environmental aspects on argumentative discourse, this study is dedicated to highlighting the environmental features within the travel narratives of **Ibn Jubayr** and **Naser Khosrow**.

Since travel writing is often based on direct observation and lived experience—or, in some cases, constructed through imaginative projection, as in **Tuḥfat al-Albāb wa Nukhbat al-Iʿjāb** by al-Gharnāṭī—it provides the writer with the space to present personal perspectives shaped by environmental phenomena and civilizational manifestations. These perspectives function as persuasive tools that contribute to the formation of argumentative discourse in travel literature.

Understanding the environment and the cultural context from which the travel writer speaks not only helps to reveal the underlying frameworks of the text but also shows how these elements are employed as argumentative devices—whether to persuade the reader, convey certain ideas, or defend specific viewpoints.

In this way, the study opens a new horizon for understanding travel literature as a form of discourse embedded with rhetorical strategies of persuasion and influence, shaped by the sender's tools and the surrounding environment and cultural context.

Keywords: Ibn Jubayr, Naser Khosrow, rhetorical argumentation, persuasion, ecocriticism.

المقدمة:

تعد العلاقة بين الإنسان والبيئة من أهم الموضوعات التي تناولتها الأبحاث والدراسات في مجالات متعددة، مثل: العلوم البيئية، والاجتماعية، والإنسانية، وتتجلّى هذه العلاقة في تفاعل الإنسان مع عناصر البيئة وتأثره بها وتأثيره على النظام البيئي، إضافة إلى وجود "نظريات ومذاهب ومدارس في علم النفس تؤكد تأثير البيئة فى تفسير سلوك الإنسان وفي نموه وفي صحته أو مرضه"(١)، ومن ثم ستكون للمشاهدات البيئية دورها في تشكيل آراء الإنسان وأفكاره.

من هنا يبدو أن الأدب ليس بمعزل عن البيئة ومعطيات الطبيعة؛ إذ أسهم تفاعل النص الأدبي مع البيئة في إجلاء كيفية تصوير الأدب لعلاقة الإنسان بعالم الطبيعة من حوله، حيث صارت النصوص الأدبية بمثابة مرآة تعكس وجهات النظر والرؤى المتعددة حول البيئة وكيفية التفاعل معها سواء من خلال الشعر، أو السرد الفنّي، أو التأمل الفلسفي، أو أدب الرحلة، وهنا يبرز دور النقد البيئوي الذي شهد اهتمامًا متزايدًا في مقاربته الأدب منذ ظهوره في أواخر القرن العشرين بين دارسي الأدب، كما أنه مكّن الباحثين من دراسة النصوص الأدبية شعرية كانت أو نثرية من زاوية جديدة؛ وذلك بسبب علاقته الوطيدة بالنقد الثقافي والمكونات المعرفية والبلاغية والحجاجية، فالنقد البيئوي "يدرس العلاقة بين البيئة الطبيعة والأدب، ليس من أجل إبراز أنّ الأدب دار حول الطبيعة وأشيائها، أو أنّ البيئة عنصر أو موضوع أدبي، وإنما الهدف تحليل العمل الأدبي من أجل إبراز تأثير البيئة في إيجاد وعي ثقافي له دور في تغيير النظرة للبيئة؛ مما يعمل على تجديد النظام الثقافي نفسه"(٢).

ويأتي النقد البيئوي في إطار التفاعل بين البيئة والنص الأدبي حيث تعرّفه (جليكا توشيتش Jelica Tošić) بقولها: "النقد البيئوي يُعنى بالعلاقات بين الأدب والبيئة"(٣)، فهو مجال متنام من الأبحاث والدراسات النقدية التي تركز على فهم العلاقة بين الإنسان

(١) عبد الرحمن عيسوي:علم النفس البيئي، ط. منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص١٧.
(٢) عبير جودت حافظ عبدالحافظ: النقد البيئوي ونظرية الأدب، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وأدابها، كلية الأداب والعلوم، جامعة قطر،٢٠٢٣م، ص ١.
(٣) جيليكا وشيتش: النقد البيئوي دراسة بينية في الأدب والبيئة، ترجمة: سناء عبد العزيز، مجلة فصول، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع١٠٢، ٢٠١٨م، ص٣٢٨.

ومعطيات الطبيعة في النصوص الأدبية وتقييمها، كما يعمل على إعادة النظر في علاقة الإنسان بالمنظومة الطبيعية والبيئية، وذلك بتناول تصوير الأدب للطبيعة، وتأثير النصوص الأدبية على الوعي البيئي، ودراسة تقديم البيئة والطبيعة في النص الأدبي.

إنّ النظر إلى المكوّن البيئوي في ضوء تعريفات النقد البيئوي يُظهر مدى عمق الدور الحجاجي الذي يمثله في الخطاب الأدبي، وبخاصة في أدب الرحلة، فبحسب (جرج جيرارد Greg Garrard) فيعرفه بأنه: "دراسة العلاقة القائمة بين الأدب والبيئة المادية"[١]، حيث يضع النقد البيئوي النص في علاقة تفاعلية مع كافة البيئة وعناصرها، هذا التصور يؤسس لتوظيف المكوّن البيئوي كوسيلة فاعلة في توجيه المعنى، وليس مجرد وصف للمكان؛ حيث تضيف الدراسة البيئية فئة المكان إلى فئات، العرق، والجنس، كزاوية جديدة لتحليل النص الأدبي، أما (مايكل برانشMichael Branch)، فقد وسّع أفق هذا التعريف فجعله يركز على العناصر الثقافية، واللغة، والأدب في علاقتهما بالبيئة، واصفًا إياه بأنه: "موقف نقدي يضع إحدى قدميه في الأدب والأخرى على الأرض"[٢]، وهو بذلك يؤكد تداخل المكون البيئوي مع بنية النص اللغوية والبلاغية، وفي ضوء هذين التعريفين، نخلص إلى أن المكوّن البيئوي لم يقتصر استخدامه على وصف البيئة وتجميل النص، ومن خلال قراءة رحلتي ابن جبير وناصر خُسرو يتضح أن المكوّن البيئويُ وظّف حجاجيًا لنقل مواقف الرحالة، وإبراز وجهات نظرهم تجاه ما عاينوه من مشاهد طبيعية وحضارية على مدار الرحلة، بما تحمله من رموز وإشارات استخدمت كوسائل حجاجية لإقناع المتلقي وجذب انتباهه، إما بإثارة الإعجاب أو النقد أو المقارنة أو الحكم، وبذلك يندمج المكون البيئوي في نسيج الخطاب الحجاجي بوصفه مكوّنًا بلاغيًا ودلاليًا يُسهم في التأثير والإقناع، هذا الاندماج بين الأدب والبيئة أسهم في سد الفجوة بين النصوص والوقائع، يقول الناقد (لورانس بويل Lawrence Buell) أنه من الناحية النظرية كانت هناك لفترة طويلة فجوة بين النصوص والوقائع، حيث يملأ النقد البيئوي هذه الفجوة.

---

[١] جرج جيرارد: النقد البيئوي، ترجمة: عزيزي صبحي جابر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠٠٩م، ص١٠.
[٢] مايكل برانش: النقد الإيكولوجي، الطبيعة في النظرية والممارسة الأدبيتين، ترجمة: معين رومية، دورية نوافذ، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع ٣٦، ٢٠٠٧م، ص ٤٤.

وتتسم الدراسة الأدبية البيئية بمجموعة من الخصائص التي تميّزها عن الأنواع الأخرى من الدراسات؛ حيث يمتد النقد الأدبي البيئوي ليشمل تحليل الجوانب الثقافية والأدبية التي تسهم في تشكيل تصور الكاتب، مع التركيز على الوظيفة البيئية الكامنة التي تقف وراء حضور المكونات البيئية في العمل الأدبي، وتحليل مكوّنات الطبيعة المستخدمة في الصور البلاغية، وما تحمله من دلالات، كذلك يعنى بتتبّع وجهات النظر البيئية التي يعكسها النص، إلى جانب دراسة علاقته بالنصوص الأخرى من خلال التناص الذي يخدم الرؤية البيئية الجمالية ويكشف تصورات الكاتب تجاه الطبيعة، كما يسعى هذا النقد إلى رصد القيم الجمالية والأخلاقية التي يتضمّنها الأدب في تعامله مع العالم الطبيعي، "مع احتراز مهم يتمثل في أن التحليل السطحي الذي يعمد فيه الناقد الأدبي البيئي إلى إحصاء أو تعداد أوصاف الطبيعة في النصوص الأدبية، ليس وراءه كبير فائدة إلا إذا استطاع أن يتجاوزه إلى تحليل ما يقف وراء هذه الأوصاف من رؤية إبداعية، والعمل على توجيهها من أجل خلق وعي بيئي"[١]، ونخلص مما سبق أن الدراسة الأدبية البيئية تتميز بتحليل العلاقة بين الأدب والطبيعة، وتتبّع الرؤى البيئية التي يعكسها الكاتب من القيم الجمالية والأخلاقية في النص، كما تسعى أيضًا إلى رصد دلالات الصور البلاغية ومعرفة مدى تأثيرها في المتلقى.

ولكي يوصف النص بالبيئي لابد له من شروط فليس كل نص أدبي بالضرورة نصّا بيئيّا، ومن أهم الاشتراطات الواجب توافرها في النص الأدبي البيئي:

إحساس الكاتب بالبيئة:

يعد إحساس الكاتب بالبيئة من المداخل الأساسية التي يستدل بها على آراء الكاتب وتوجهاته، ومن ثم معرفة غرض المكون البيئوي في النص والوقوف على حجاجيته ومدى تأثيره[٢]، ومن ثم فإن تحليل البُعد البيئوي في النص في ضوء إحساس الكاتب وتفاعله مع عناصر البيئة يبين كيف وظف الكاتب المكان والطبيعة لدعم وجهة نظره أو لإقناع

---

[١] هاني علي سعيد محمد: النقد الأدبي البيئي، قراءة في مُدوّنة الدراسات العربية البيئية، وممارسة تطبيقية على قصة "رأيتُ النخل" لرضوى عاشور، مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، كلية الآداب جامعة كفر الشيخ، ع ٢٦، ٢٠٢٢م ، ص٤٦٤ .

[٢] ينظر، محمد أبو الفضل بدران: أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية، دبي، ٢٠١٥م، ص.ص ٤٥٦- ٤٩١، ص ١٩٦.

المتلقي والتأثير فيه، مما يجعل من المكوّن البيئوي أداة حجاجية فعّالة، تتجاوز الزينة البلاغية لتصبح عنصرًا فاعلًا في بنية الخطاب.

أن يحمل الكاتب همّا بيئيًا:

لا يكفي الكاتب مجرد وصف الطبيعة ليُعد نصه أدبًا بيئيًا، بل عليه أن يتبنّى قضية بيئية ويُظهر انشغاله بها، فعليه أن "يحمل هما بيئيًا، وأن يعتنق أفكار الامتزاج والاندماج بالطبيعة داخل النص، والاحتماء بها، كذلك تفاعل الكاتب مع البيئة عبر تمثلات مختلفة فليس كل أدب وصف الطبيعة عُد أدبا بيئيا، بل يجب أن يحاور الأديب هذه الطبيعة داخل النص"[1]، وبذلك لا يكون وصف الطبيعة مجرد خلفية سردية، بل يصبح هذا الوصف شريكًا في تشكيل المعنى والحجة داخل النص.

أسباب اختيار الموضوع:

١. الطابع الحجاجي لأدب الرحلة: يُعدّ الطابع الحجاجي من السمات البارزة لأدب الرحلة، فالرحلة ليست مجرد تنقّل مكاني أو سرد للوقائع، بل هي فرصة للتعبير عن آراء الكاتب وتصوراته، هنا يكمن الجانب التداولي لخطاب الرحلة الذي يستخدم فيه الكاتب أساليب متنوعة للإقناع؛ حيث يوظّف تجربته وملاحظاته لدعم حجته، لذلك، يُعدّ أدب الرحلة أداة فاعلة في بناء خطاب حجاجي يُقنع ويؤثّر بقدر ما يسرد ويوثّق، وفي هذا السياق، تأتي رحلتا ابن جبير وناصر خُسرو مثالًا حيًّا على هذا الطابع الحجاجي، إذ لا تقتصران على الوصف والسرد، بل تحملان خطابًا حجاجيًا واضحًا، يرتكز على الرؤية الشخصية والموقف النقدي.

٢. غنى النصّين بوصف البيئة والسياق الحضاري: فكلا الرحالتين يصفان مشاهد طبيعية وعمرانية ودينية وثقافية، مما أثرى النصين ووفّر مادة خصبة للتحليل والمقارنة.

[1] هاني علي سعيد محمد: النقد الأدبي البيئي، ص٤٦٤.

٣. الاختلاف المذهبي والجغرافي بين الكاتبين، رغم قيامهما بالرحلة نفسها، وهو ما يثري المقارنة ويكشف عن التوجهات المختلفة للكاتبين في توظيف الحجاج في ضوء اختلاف المرجعيات والثقافات.

٤. الحاجة الأكاديمية إلى دراسات تحليلية تجمع بين مكونات الحجاج والدراسات البيئية والحضارية للنصوص الأدبية.

إشكالية البحث:

يحاول البحث الإجابة عن بعض التساؤلات منها: كيف وظّف كل من ابن جبير وناصر خُسرو المكونات البيئوية والحضارية في رحلتيهما كوسيلة حجاجية؟ وما دلالة هذه المكونات البيئوية في كشف رؤية كل كاتب للعالم من حوله؟ معتمدًا على المنهج التحليلي المقارن في الدراسة.

مادة البحث:

تتمثّل مادة البحث في مصدرين رئيسين، هما:

(١) رحلة ابن جبير، لمحمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبي الحسين (ت٦١٤هـ)، وسوف يعتمد البحث على النسخة التي حققها الدكتور حسين نصار، عام ١٩٩٢م، وعدد صفحاتها ٤٨٠ صفحة.

(٢) سفرنامه، لأبي معين الدين ناصر خُسرو الحكيم القبادياني المروزي (ت٤٨١هـ)، وسوف يعتمد البحث على النسخة العربية التي حققها وترجمها الدكتور يحيى الخشاب، في طبعتها الثالثة عام ١٩٨٣م، وعدد صفحاتها ١٨٧ صفحة.

وجاء البحث في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، تضمنت المقدمة: التعريف بالموضوع، وأهميته، وأسباب اختياره، وإشكالية البحث، والمنهج المتبع، وتناول المبحث الأول التعريف بابن جبير (٥٤٠-٦١٤هـ)، و ملامح القيم البيئية وأثرها الحجاجي في رحلة ابن جبير و جمالية التناص البيئي وأثره الحجاجي في رحلة ابن جبير، وتناول المبحث الثاني التعريف بناصر خُسرو، وملامح القيم البيئية وأثرها الحجاجي في رحلة سفر نامه، و جمالية التناص البيئي وأثره الحجاجي في رحلة سفر نامه، واشتملت الخاتمة على أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول: ملامح القيم البيئية وأثرها الحجاجي في رحلة ابن جبير

أولاً: التعريف بابن جبير (٥٤٠-٦١٤هـ):

هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين، رحّالة أديب، ولد في بلنسية، ونزل بشاطبة، وبرع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق، وقد نشأ "تحت تربية أبيه الذي جهزه لتقلّد المراتب والمناصب السامية، فتلقى العلم عن أبيه وعلماء عصره بمنطقة شاطبة، وعنى بالأدب، فبرع فيه، وبرز في صناعته"[١]، كما أولع بالترحال والتنقل، فزار المشرق ثلاث مرات، إحداها سنة ٥٧٨ – ٥٨١ هـ، وهي التي ألّف فيها كتابه (رحلة ابن جبير)، وقد زار (ابن جبير) في رحلته الكثير من البلاد والأقاليم في المشرق الإسلامي، منها: (مصر– الحجاز– بلاد الشام– العراق)، ودون الكثير من الملاحظات فيما يخص أحوال سكان تلك المناطق وعاداتهم وسلوكياتهم ومذاهبهم الدينية، كما أولى اهتمام لذكر مظاهر العمران والحضارة، وتوفى في مدينة الإسكندرية في عام (٦١٤هـ) ودفن بها في رحلته الثالثة[٢].

واشتهر ابن جبير بسبب رسائله وأقواله في الحكمة في الأوساط الأدبية؛ إذ كان له قدرة فائقة على النثر، كما قال عنه ابن الخطيب: "إنه كان أديبًا بارعًا نثره بديع، وكلامه المرسل سهل حسن، وأغراضه جليلة ومحاسنه ضخمة"[٣].

ثانيًا: ملامح القيم البيئية وأثرها الحجاجي في رحلة ابن جبير:

١- تصوير ابن جبير للبيئة:

صوّر ابن جبير البيئة في رحلته بشكل غني بالتفاصيل التي تعكس تأثير الثقافة والفكر البيئي في رؤيته للطبيعة، ومن أمثلة تصويره للطبيعة وصف (صقلية): "كفاها أنها ابنة الأندلس في سعة العمارة، وكثرة الخصب والرفاهة، مشحونة بالأرزاق على اختلافها،

---

(١) ينظر: محمد لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها، تحقيق: إحسان عباس، ط. دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص٣٨٢، ويراجع: شوقي ضيف: الرحلات، ط. دار المعارف، ط٤، القاهرة، ، ص٧٠، وينظر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار معروف، ط. مؤسسة الرسالة، ط ٣، ج ٢٢، ١٩٨٥م، ص ٤٦.

(٢) خير الدين الزركلي: الأعلام، ط. دار العلم للملايين، بيروت، ط. ١٥، ج٢٠٠٢،٥م، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٣) محمد لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: يوسف علي طويل، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٢٠٠٣،٢م، ص١٤٦.

مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها ... وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والإجاص وغيرها من الفواكه"[١].

يلاحظ أن ابن جبير لم يكتف فقط بتشبيه صقلية بالأندلس، بل جعل من صقلية ابنة الأندلس في الجمال ووريثتها في الرقي؛ مما يمنحها شرعية ثقافية وحضارية في ذهن المتلقي؛ نظرًا لما تمثله الأندلس من جمال الطبيعة وازدهار العمارة، كما تدعم الصورة رؤية ابن جبير في احتفاظ الأرض بروح الأندلس ورونقها.

كما استند ابن جبير على وصف بديع لجمال طبيعة صقلية، حيث الأرض الخصبة التي جعلها الله سببًا في تنوع الأشجار المثمرة واختلاف نتاجها، والبساتين العامرة، وهذا الوصف يشير إلى انسجام تام مع البيئة، وحسن استغلال هذه البقاع الخصبة من الجبال وتحويلها إلى أراضٍ خضراء عامرة بشتى أنواع الخير الوفير، وهذا الوصف سيثير خيال المتلقي ويخلق في ذهنه صورة لوحة بديعة لصقيلة، يبقى انطباعها في ذهنه كلما قرأ أو سمع عن صقلية.

ولقد حقق ذكر الأنواع المختلفة للفواكه وتعددها الوظيفة الحجاجية، من حيث إقناع المتلقي بثراء الطبيعة ووفرة خيراتها، كما أوضحت العبارة الصورة الإيجابية عن البيئة لدى ابن جبير، حيث يراها مصدرًا لتأمين الغذاء، ومنبعًا الرخاء، وهي سبب في ديمومة رفاهية الحياة وازدهارها.

كما ذكر ابن جبير العديد من الأمكنة التي وظفها توظيفًا يخدم بنية السرد، كما يخدم أيضًا الجانب التداولي، ففي صف مدينة (دمشق) استثمر مفردات الطبيعة وعناصر الجمال البيئي لتقديم صورة مثالية، تُقارب الجنة في دلالاتها، حيث يقول: "جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقرّ بناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين، وحلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين..."[٢]، هذا التمثيل البيئي يحمل طابعًا جماليًا قويًا، وفي الوقت ذاته ينطوي على بعد حجاجي؛ إذ يُقنع المتلقي بمكانة المدينة الاستثنائية ويثير في

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، ط. مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٤١٢.
(٢) رحلة ابن جبير، ص ٣٢٦، ٣٢٧.

نفسه مشاعر الإعجاب والانبهار، كما يوظّف الرمزية الدينية (التمثيل بالجنة) لخلق صورة ذهنية تعزز قداسة المكان وتفوقه الجمالي، وبهذا يتحوّل المكان إلى شاهد على الرخاء، ووسيلة إقناعية ضمن خطاب الرحالة.

أما وصفه لـ (الكوفة)، فيأخذ المكوّن البيئوي منحًى مغايرًا، إذ يقدّم صورة تحمل معاني الانحدار والدمار، يقول: "مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها، فالغامر منها أكثر من العامر..."[١]، ويحمل هذا الوصف بعدًا حجاجيًا، فكلمة خراب ترمز للوقائع والحروب التي حلت بالمدينة، كما أسهمت في خلق صورة صورة سوداوية في ذهن المتلقي عن مدى سوء حالة المدينة والدمار الذي أحاط بها.

ويتواصل هذا الخط الحجاجي في وصف (الحلة)، إذ تُصوَّر المدينة بوصفها مكانًا مستهلكًا ومهدّدًا، فيقول: "هي مدينة كبيرة عتيقة الوضع... لم يبق من سورها إلا حلق من جدار ترابي مستدير بها"[٢]، هذا التركيز على تهالك السور وفقدان التحصينات يعكس هشاشة المكان وضعفه، ويوظَّف لإيصال شعور بانعدام الأمن والاستقرار، وهنا لا يكتفي ابن جبير بتصوير المكان، بل يجعل من المشهد البيئي أداة تُجسّد ما آلت إليه المدينة من تدهور، فيتحول الوصف إلى وسيلة لإقناع القارئ بأن ما يراه ليس مجرد أثر زمني بل نتيجة لواقع مضطرب.

٢- علاقة الإنسان بالطبيعة:

يعد المكان من العناصر المحورية في أدب الرحلة، فهو يشكل الإطار الذي تنطلق منه بقية عناصر السرد، كالزمن والأحداث والشخصيات، وفي الوقت ذاته، ينفتح على بعدٍ تخيلي وإبداعي يُبرز حسّ الرحالة الجمالي وانفعاله بالمكان، وتمتد هذه الرؤية أيضًا لتشمل المكان بوصفه مكوّنًا حجاجيًا، "فلكل نص سردي ناجح دلالة للأمكنة التي يحتويها"[٣]؛ إذ لا يقتصر حضوره على كونه إطارًا للسرد فقط، بل يُستعرض بوصفه عنصرًا دلاليًا يُستخدم للتعبير عن موقف الرحالة ورؤيته، مما ينتج نصًا يتقاطع فيه البعد الحجاجي مع

---

[١] رحلة ابن جبير، ص ١٨٧.

[٢] رحلة ابن جبير، ص ٢٦١.

[٣] أم الخير سيلت، علي دغمان: سردية النص الرحلي بين التاريخية والأدبية "رحلة ابن جبير" أنموذجًا، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، جامعة الوادي، الجزائر، مج ٦، ع ٢، ٢٠٢٣م، ص.ص ٤٩- ٦٣، ص ٥٤.

البنية الفنية الإبداعية، ويظهر هذا البُعد الحجاجي للمكان بوضوح في تصوير ابن جبير لأهوال البحر خلال رحلته، فالبحر لم يكن مجرد مسرح للأحداث، بل تحول إلى ساحة تتداخل فيها الانفعالات النفسية والدلالات الحجاجية، فقدّم الرحالة البحر بوصفه بيئة متقلبة ومضطربة، عاكسةً لمخاوف الإنسان وضعفه أمام قوة الطبيعة، هذا التمثيل للبيئة البحرية لم يكتفِ بالوصف، بل استُثمر حجاجيًا لإبراز معاناته وعمق تجربته، ويعكس في الوقت ذاته بعدًا تخيليًا يُضفي على النص طابعًا إبداعيًا مما يُقوّي من أثره في المتلقي.

وقد وصف ابن جبير أهوال (البحر) في أكثر من موضع أثناء رحلته بتفاصيل دقيقة لكنها في ذات الوقت تحمل شيئًا من معاني الخوف والرهبة، هذا الخوف ما هو إلا تقدير للطبيعة وقوتها، وإدراكه العميق للأخطار والمهالك، فقد قدمه كقوة طبيعية غير مستقرة، لها كل التقدير والمهابة، لا يستعان عليها إلا بالدعاء والتضرع إلى الله عز وجل، يقول: "فجاء النهار وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة بما هو أشد هولاً وأعظم كربًا، وزاد البحر اهتياجًا واربدت الآفاق اسودادًا، واستشرت الريح والمطر عصوفًا، حتى لم يثبت معها شراع؛ فلجيء إلى استعمال الشرع الصغار، فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت الخشبة التي ترتبط الشرع فيها، وهي المعروفة عندهم بالقَرِيّة. فحينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى الله عز وجل، وأقمنا على تلك الحال النهار كله، فلما جنّ الليل فترت الحال بعض فتور، وسرنا في هذه الحال كلها بريح الصواري سيرًا سريعًا"[١].

في تصور ابن جبير، فإن البحر متصل بوشائج قوية بالطبيعة، وهو لا يشير إلى استغلاله أو تغييره، بل إلى الخوف منه، وعدم القدرة على السيطرة عليه، فمن منظور المكون البيئوي، يُلاحظ أن البحر يُعامل كأحد عناصر الطبيعة التي ينبغي تقديرها، والمحافظة عليها وعدم تلويثها، كما تعكس علاقة ابن جبير بالبحر ارتباطًا دينيًا، فهذه القوة المهيبة تتطلب التضرع إلى الله واللجوء إليه، والتذكير بقوته وقدرته في خلقه.

كذلك عبّر ابن جبير في موطن آخر عن وجه من أوجه التفاعل مع البيئة، فيصف الوضع في منطقة المرور على الشعاب المرجانية، يقول: "فجرينا يومنا ذلك، وهو يوم

[١] رحلة ابن جبير، ص ٢٥، ٢٦.

الخميس المذكور، بريح رُخاء طيبة، ثم أرسينا عشية في جزيرة صغيرة في البحر على مقربة من البر المذكور بعد أن لقينا شعابًا كثيرة يكثر فيها الماء ويتضحل علينا، فتخللنا أثناءها على حذر وتحفّظ"[١].

يذكر ابن جبير مشكلة طبيعية واجهتهم أثناء الرحلة، وهي الشعاب المرجانية التي كادت أن تطيح بالسفينة ومن فيها، وتتجلى هنا علاقة الإنسان بالطبيعة، فهو مطلوب منه التعامل بذكاء وفهم لطبيعة المكان الذي يتواجد به، والقدرة على حل مشكلاته مع البيئة بما ليس فيه ضرر، بما يسهم في بيئة طبيعية مستدامة، لا تشكل خطرًا على الإنسان من خلال تفكره وتعقله في التعامل معها.

وتبدو حالة التوتر والقلق التي يعيشها المسافرون أثناء محاولتهم تجاوز الشعاب "على حذر وتحفّظ"، ويعكس هذا السياق النفسي حالة التأهب والخوف من المخاطر المادية التي من الممكن أن تنقلب على المسافرين في أي لحظة، مما يضيف بُعدًا آخر لعلاقتهم مع الطبيعة.

ومن المشاهدات السابقة، نلاحظ أن ابن جبير تعمّد تحويل المواقف والمشاهدات إلى صور حية تثير خيال المتلقي وتحفز التأمل لديه، فتتولد في ذهنه صورة أشبه بالحقيقة تسهم في تفاعله مع النص، فابن جبير لم يهدف فقط التوثيق المجرد لمشاهد البحر، بل حمّل الوصف دلالات ومعان حجاجية تمثلت في إقناع المتلقي بالضعف الإنساني أمام قوى الطبيعة، كما حفّز المتلقي إلى أهمية الحذر من تقلبات الطبيعة ومعرفة كيفية التعامل معها.

وفي موضع آخر من نص الرحلة يتجلّى بوضوح التفاعل مع البيئة في وصف (القرافة)، يقول ابن جبير: "فهي بأسرها روضات بديعة الاتقان، عجيبة البنيان، قد وكل بها قَوَمَة يسكنون فيها ويحفظونها ومنظرها عجيب..."[٢].

لجأ ابن جبير إلى تشبيه يختلف عمّا يبدر إلى ذهن المتلقي حين يقرأ عن القرافة، فهي روضات بديعة الإتقان، هذا التشبيه يضفي معاني الحياة والبهجة على القرافة، فهم

[١] رحلة ابن جبير، ص ٨٠، ٨١.
[٢] رحلة ابن جبير، ص ٣٩.

خلقوا الحياة من قلب الموت، كما أن وصف القرافة بالروضات يحمل بعدًا دينيًا، فالروضات هي نعيم الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين، يقول الله تعالى: "فتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِم وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوضَاتِ ٱلجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِم ذَٰلِكَ هُوَ ٱلفَضلُ ٱلكَبِيرُ "[1].

وكأن ابن جبير اختزل الحياة البرزخية الحساب والبعث بالانتقال مباشرة إلى جنات النعيم. حيث يتم تخيل القبور كأنها بوابات للجنة، وهي صورة غريبة على المتلقي تعمل على جذب انتباهه، وخلق صورة ذهنية مغايرة للصورة المعهودة للقرافات، وبذلك يتحقق الهدف الحجاجي في إقناع المتلقي بجمال القرافة، والتأثر بهذه الصورة المختلفة التي تحولت فيها البيئة الحاضنة للموت إلى بيئة تضمنت معانً للحياة.

٣- الاهتمام بالبيئة المستدامة:

الاستدامة مصطلح بيئي له أثره الإيجابي على المتلقي حيث ينمي إحساسه بالبيئة ووعيه بالطبيعة من حوله، والاستدامة هي الحفاظ على نوعية الحياة على المدى الطويل في إطار نظام بيئي سليم، والاستدامة البيئية هي: "التفاعل المسؤول المتوازن للبيئة لتجنب استنزاف الموارد الطبيعية أو تدهورها، والسماح بجودة بيئية طويلة المدى، مما يساعد على ضمان تلبية احتياجات الأجيال الحالية دون المساس بمقدرات الأجيال المستقبلية، بما يحقق التنمية المستدامة بشكل أكثر تكاملًا"[2]، ويبرز مفهوم الاستدامة البيئية بصورة واضحة في حديث ابن جبير عن آثار (السيدة زبيدة)، حيث أشاد بمجهودها في توفير المياه للحجيج عبر إنشاء السقايات وحفر الآبار في طريق الحج، هذا العمل يعكس وعيًا عمليًا بأهمية الحفاظ على الموارد البيئية وتوفيرها بصورة دائمة، مما يلبّي حاجة الحجيج في زمانها دون أن يمسّ بحق الأجيال القادمة، وهو جوهر فكرة الاستدامة بالمفهوم المعاصر

يجدر الإشارة إلى ملاحظة ابن جبير حول توافر المياه في البرك والآبار على طول الطريق من بغداد إلى مكة بعبارات تدل على وفرتها في كل مكان، منها قوله واصفًا

---

[1] سورة الشورى: الآية ٢٢.

[2] فاطمة النجار، أبو النور مصباح: دور الجامعات المصرية في تحقيق الاستدامة البيئية، مجلة كلية التربية، بنها، ع ١٣٦، ج٣، ٢٠٢٣م، ص.ص ٦٩٩- ٧٦٢، ص ٧٠٧.

مراحل رحلته: "وكان هذا المصنع مملوءًا من ماء المطر، فغمر الناس وعمّهم، والحمد لله هذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة هي آثار زبيدة ابنة (جعفر بن أبي جعفر المنصور) زوج (هارون الرشيد) انتدبت لذلك مدة حياتها فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة في ذلك ما سُلكت هذه الطريق، والله كفيل بمجازاتها والرضا عنها"[1].

وقد توافرت في النص مؤشرات دالّة على الاهتمام بالمياه، فنلاحظ الاستغلال الأمثل لمياه الأمطار لتوفيرها كمصادر للشرب، فقد أثنى ابن جبير على صنيع (زبيدة بنت جعفر)، ومن آثارها عمل مصانع وبرك لجمع مياه المطر وتوفيرها للحجيج، في الطريق من بغداد إلى مكة، وهذا الصنيع يعكس وعيًا مسبقًا بمشكلات الحجيج في هذا الطريق الصحراوي وقلة موارده، ومحاولة إيجاد حلول لهذه المشكلات بصورة آمنة ومستدامة، فكان الحل في هذه المصانع التي امتد نفعها من عهد **(هارون الرشيد ت ١٩٣هـ)**، إلى وقت زيارة ابن جبير، ويذكر ابن جبير أنه "لولا آثارها الكريمة في ذلك ما سُلكت هذه الطريق"، وهو ما يضمر عدم صلاحية الطريق للسفر، وتعرض الحجيج للخطر بسبب مشكلة نقص المياه قبل إنشاء هذه المصانع، وبعرض مشكلات الحجيج والعمل على حلّها يتفاعل المتلقي مع النص ويشعر بمعاناة الحجيج، ويشكر صنيع من يساعدهم، هذا التفاعل يؤدي حتمًا للتأثير في المتلقي وتعاطفه مع الحجيج، كما أن الوصف له تأثيره الإيجابي على المتلقي في التأسي بالقدوة الصالحة والاقتداء بأعمالها النافعة.

يشير ابن جبير إلى أن هذه الآثار "تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن"، وهي عبارة تحمل اعترافًا ضمنيًا بأهمية فكرة الاستدامة خاصة فيما يفيد البيئة، كما يتواتر التأكيد على هذا المفهوم عن طريق الاعتراف بفضل زبيدة في إدارة الموارد الطبيعية، فلقد حرص ابن جبير على بيان دور السيدة زبيدة في توفير المياه للحجيج، وتقدير إنجازاتها في ضمان سلامة الطريق، هذا السرد يعكس انصاف ابن جبير للنساء والاعتراف بدورهن في الأعمال النافعة.

---

[1] رحلة ابن جبير، ص٢٥٥.

ومن الملاحظ أنه ثمة سياق ديني في النص يتمثل في ربط توفير المياه وخدمة الحجيج بفضل الله ونعمته، حيث ذكر ابن جبير أن الله تعالى "كفيل بمجازاتها والرضا عنها"، وهذا الدعاء يمنح الأعمال التي قامت بها زبيدة طابعًا إيمانيًا، كما أنه يجعل من القيام بأعمال بيئية مستدامة عملاً أخلاقيًا ودينيًا في الوقت ذاته.

ويتجلى اهتمام ابن جبير بالطبيعة في وصف مدينة (رأس العين) من خلال التركيز على المياه والخصوبة الطبيعية للمكان، يقول: "هذا الاسم لها من أصدق الصفات، وموضوعها به أشرف الموضوعات، وذلك أن الله تعالى فجر أرضها عيونًا وأجراها ماء معينًا، فتقسمت مذانب وانسابت جداول تنبسط في مروج خضر، فكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد، تحفّ بها أشجار وبساتين قد انتظمت حافتيها إلى آخر انتهائها من عمارة بطحائها، وأعظم هذه العيون عينان: إحداهما فوق الأخرى، فالعليا منهما نابعة فوق الأرض في صُمّ الحجارة كأنها في جوف غار كبير..."[1]، فهذا الوصف يحتوي على العديد من مظاهر الاستدامة والحفاظ على البيئة، ويمكن إجمال ذلك في عدة نقاط:

-وفرة المياه دلالة على الرخاء والاستدامة:

يصف مدينة (رأس العين) بأنها مكان مبارك بسبب وفرة المياه التي تنبع من العيون الطبيعية، والتي تعد سببًا رئيسًا من أسباب رخاء البلاد واستقرارها، هذه المياه قسمت بشكل دقيق لإمداد الجداول والمروج الخضراء، ويبدو تمتع ابن جبير بحس بيئي عال، وتقدير لكل ما يفيد في ديمومة هذه المساحات الخضراء وينفع في استمراريتها، ويوضح ذلك أيضًا إعجاب ابن جبير الشديد بجمال الطبيعة، فيصور الجداول بسبائك اللجين، أما الأرض فهي بساط الزبرجد.

-أهمية الماء كعنصر رئيس في العمران:

يرجع ابن جبير الفضل في العمران والبناء للماء الذي هو أصل الحياة وشريانها، فهو أساس الزراعة والاقتصاد والعمارة، كذلك فهو مصدر روحي للجمال يبرز عظمة الله عز وجل.

[1] رحلة ابن جبير، ص ٣٠٢.

كما امتد حديث ابن جبير إلى وصف المظاهر العمرانية التي تدلّ على وعي الحكّام بمسؤولياتهم تجاه شعوبهم، مثل إشادته بالمارستان الذي أنشأه (صلاح الدين) "وهو قصر من القصور الرائقة حسنًا واتساعًا، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرًا واحتسابًا..."[١]، فهو يقدّمه لم يقدمه كقائد عسكري فقط، بل كحاكم يهتم بالرعية ويُعنى بالعمران والتعليم والصحة، فأنشا المدارس والمساجد ومارستان كبيرة، وقد استخدم ابن جبير هذه المشاهد كوسيلة لإقناع القارئ بصورة الحاكم العادل والسلطان الصالح.

ثالثًا: جمالية التناص البيئي ودوره الحجاجي في رحلة ابن جبير:

يعد التناص واحدًا من مصطلحات الدراسات النقدية الحديثة، ويُعنى بدراسة النص الأدبي في ضوء علاقته بنصوص سابقة له، وقد عرفه العرب منذ القدم تحت مسمى "السرقات"، لكنه في الدراسات الحديثة أخذ "منحًى إيجابيًا، بعد أن تخلص من تلك النظرة ذات الطابع الأخلاقي التي رافقته في العصور القديمة، تلك النظرة التي وصمته بأنه ضرب من السرقة"[٢]، ومن هذا المنطلق لم يعد التناص ممارسة تتنافى مع الأخلاقيات، بل أصبح يُعد من سمات النص الأدبي، كما تشير إلى ذلك (جوليا كريستيفا Julia Kristeva) إذ تعدّه "أحد مميزات النص الأساسية، والتي تحيل على نصوص أخرى سابقة عنها، أو معاصرة لها، كذلك يرى (سولير Sollers) التناص في كل نص، يتموضع في متلقي نصوص كثيرة، بحيث يعتبر قراءة جديدة / تشديدًا / تكثيفًا"[٣]، ويفضي هذا التصور إلى فهم أوسع للتناص، بوصفه نمطًا من أنماط التفاعل بين النصوص، يقوم فيه بتوظيف نصوص سابقة أو أفكار مستعارة، مما يشكل نوعًا من الامتزاج بين النصوص المختلفة، ويُظهر هذا التفاعل أن النص الأدبي لا ينشأ في عزلة، بل هو جزء من سلسلة من التأثيرات والتأثرات التي تسهم في تشكيل بنيته، وبجانب القيمة الجمالية التي يضفيها التناص على النص الأدبي، فإن له بعدًا حجاجيًا، خاصة في أدب الرحلة؛ إذ يُستخدم كأداة لتعزيز مصداقية الرحالة، وبناء الثقة مع المتلقي، وذلك من خلال استدعاء نصوص دينية، أو تراثية، أو شعرية مأثورة تعزز وجهة نظر الرحالة، وتُضفي

---

(١) رحلة ابن جبير، ص٤٨.

(٢) حصة البادي: التناص في الشعر العربي الحديث، ط. دار كنوز المعرفة العلمية، عمّان، ٢٠٠٩م، ص ٧.

(٣) سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٢١٥.

على خطابه سلطة دينية أومعرفية، وبذلك يتحول التناص إلى أداة إقناع تعزز المفعول الحجاجي للنص.

على الجانب البيئوي فإن التناص يهدف إلى: "نقل مفهوم التناص إلى مستوى البيئة"[١]، وهو ما فعله ابن جبير عندما لجأ إلى التناص المباشر في وصفه لجمال دمشق، وعذوبة مائها قائلاً: "**اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب**[٢]"[٣].

التناص في وصف (دمشق) يشير إلى اقتباس قرآني من قصة النبي (أيوب عليه السلام)، حيث جاء في الآية الكريمة خطابًا من الله تعالى إلى نبيّه أيوب عليه السلام، مبشرًا إياه بماءٍ باردٍ قد نبع من الأرض، سخره الله تعالي لشفائه بعد طول مرض طويل لم يجد له علاجًا، وقد أضفى هذا التناص بعدًا دينيًا يُشعر المتلقي بنعمة الشفاء بعد طول مشقة ومعاناة، كما ان استحضار هذه الآية يمنح وصف دمشق طابعًا قدسيًا، فهي ليست مجرد مدينة جميلة، بل هي "المغتسل البارد والشراب" الذي يبعث في النفس الراحة والشفاء، هذا الماء البارد ليس فقط للعيش بل يعد مصدرًا للراحة النفسية والجسدية، ويلقي التناص الضوء على عدة نقاط:

-السياق التاريخي لاستدامة تأمين المياه:

للماء قيمة دينية وحضارية راسخة، فهو رمز والخير والنماء، وشرط أساسي لاستمرار الحياة، وقد ارتبط ذكره بسياقات النماء والإنبات، فديمومة الحياة واستمراريتها يرتبط ارتباطًا وثيقًا باستمرارية المياه ووجودها، إذ لا حياة بلا ماء.

-الإشادة بجمال البيئة ومسئولية الحفاظ عليها:

أضفى التناص مع قصة (أيوب) عليه السلام على مدينة (دمشق) نوعًا من القداسة، حيث جعل الوصف من المدينة رمزًا للجمال الطبيعي، ومصدرًا للبركة الإلهية التي ينعم بها سكان المدينة وزوارها، ومع تعدد كل تلك النعم، فمن الواجب الديني والأخلاقي الحفاظ عليها، ودعم استمرارها وديمومتها.

---

[١] عبد الحميد أحمد الحسامي: الضباب أتى الضباب رحل، قراءة من منظور بيئي، مجلة علامات في النقد الأدبي، مج ١٧، ج ٦٨، فبراير ٢٠٠٩، ص.ص ٢٤٥-٣٠٣، ص ٢٩٦.

[٢] رحلة ابن جبير، ص ٣٢٧.

[٣] سورة ص: الآية ٤٢.

المبحث الثاني: ملامح القيم البيئية وأثرها الحجاجي في رحلة ناصر خُسرو

أولًا: التعريف بناصر خُسرو (٣٩٤-٤٨١هـ):

عرّف ناصر خُسرو نفسه في كتابه سفرنامه، فهو أبو معين الدين ناصر خُسرو الحكيم القبادياني المروزي[١]، ولد عام (٣٩٤هـ) في بلدة من أعمال بلخ، وتأدّب أحسن تأدب، وقام في شبابه بأسفار عديدة في أنحاء فارس، وتركستان، والهند، وبلاد العرب، ثم استقرّ في منصب كبير في ديوان السلاجقة بمدينة مرو. وظل يعيش ترف وبطالة فترة وجيزة، ثم ضحّي بمنصبه، وبدأ حياة جد وسفر وعلم وتقوى، وترك مذهبه السني، وأصبح من أشد دعاة الإسماعيلية والمتعصبين للفاطميين، وتوفّى عام (٤٨١هـ)[٢].

ثانيًا: ملامح القيم البيئية في رحلة ناصر خُسرو:

١-تصوير خُسرو للطبيعة والبيئة:

قدّم خُسرو إحساسًا أكثر ثراءً بالبيئة حيث احتلت البيئة حيّزًا كبيرًا في نص الرحلة – خاصة فيما يخص مصر[٣]– فالبيئة جزء أصيل من التكوين الثقافي والنفسي للكاتب، فاحتفاؤه بالبيئة وانبهاره بالطبيعة، بدا في حرصه على تقديم وصف دقيق للمشاهد الطبيعية التي مرّت على مدار رحلته، ويدل الاستطراد في سرد التفاصيل على وضوح رؤية الكاتب تجاه البيئة، كما عكس حالته النفسية والروحية، كذلك أكّد علاقة خُسرو بالبيئة، كما بيّن إحساسه البيئي الذي أدّى لإعلاء إحساس المتلقي بالمسئولية تجاه معطيات الطبيعة وحثّه على استغلالها الاستغلال الأمثل للحفاظ عليها، مثال ذلك الوصف التالي: "أمر أن تبنى مصر في هذه الصحراء، ثم أمر أن يشيد كل فرد من أفراد حاشيته بيتًا وهكذا بنيت المدينة التي قل نظيرها"[٤]، فقد بنيت القاهرة بناءًا مميزًا، فبدايتها قضاء على الصحراء وبناء بيئة جديدة فيها عمران وخير وبركة، الأمر الذي يعكس إحساس خُسرو، فدخوله

---

[١] ينظر: ناصر خُسرو: سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م، ص٣٣.

[٢] ينظر: زكي محمد حسن: الرحَّالة المسلمون في العصور الوسطى، ط. مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢م، ص٤٥، وأيضا: حاجي خليفة: كشف الظنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ج٢، ص٩٩١، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ط. دار اليقظة، بيروت، ١٩٦٤م، ص ٥٦٢، ومحمد دهقانى: تاريخ عصر غزنوي ناصر خُسرو وأدبيات إيران، انتشارات نشرنى، سال انتشار شمسى ١٤٠١، ص ١٣.

[٣] أقام ناصر خُسرو في مصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، حيث حظى بمركز ممتاز أثناء إقامته بها، واستاثر الحديث عن مصر على النصيب الأكبر من كتاب سفر نامه، ينظر مقدمة يحى الخشاب في كتاب سفر نامه، ص٢٩.

[٤] سفر نامة، ص١٠٤، ١٠٥.

القاهرة يشبه دخول المعز لدين الله القاهرة؛ فقد بدلت صحراء قلبه وعقله سعادة وبركة، وذهب عن وجدانه التيه والشتات، ولابد لخُسرو أن ينقل قناعاته عن القاهرة وحاكمها؛ ويقنع المتلقي بأسالبيب متعددة برؤيته، عن بيوت (القاهرة) ومبانيها يقول خُسرو: "وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول أنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة"[١]، هنا اكتسب الوصف وظيفة جديدة؛ حيث أصبح مرآة عكست حالة من الانشراح والراحة طغت على نفس خُسرو، فرأى القاهرة في صورتها المثالية، ووجد فيها ضالته المنشودة، إذ يُظهر الوصف مشاعر الكاتب وطريقته في النظر إلى الأشياء أكثر مما يصف الأشياء نفسها.

وعن قصر السلطان يقول خُسرو: "ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل"[٢]، فالتشبيه هنا لا يقتصر على الجمال الخارجي فحسب، بل هو أيضًا وسيلة لفهم نفسية خُسرو تجاه السلطان حيث تمثل الجبال الصلابة والاستقامة، وتعد التشبيهات هنا جزءًا لا يتجزأ من بنية النص الحجاجية حيث استخدم الوصف كأداة لإثبات فكر خُسرو والإقناع بنظرته تجاه الحاكم، فالعلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة متزنة، أنبأت في مضامينها عن العلاقة المثالية بين الحاكم وشعبه كما يراها خُسرو، والتي تقوم على التفهم والاحترام والحوار في جو من الألفة والصفاء والنقاء.

٢-التركيز على العلاقة بين الإنسان والطبيعة:

تعد العلاقة بين الإنسان والطبيعة أحد شروط برانش في النص البيئي[٣]، وقد لاحظ خُسرو التفاعل البشري مع البيئة في المجتمعات التي زارها، وفي إحدى مشاهداته يستعرض في وصف مصر شكل جديد للزراعة وحل مشكلة الري في شكل معماري مميز لا يوجد له مثيل في مكان آخر مما يدل على سلوك المجتمع الحضاري وعاداته السليمة المتوافقة مع فطرة الإنسان السوية ونقائها.

ويستعرض خُسرو في سفر نامه كيفية تفاعل الناس مع البيئة بكل عناصرها، يقول في وصف مصر: "وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات،

---

[١] سفر نامة، ص١٠٦.
[٢] سفر نامة، ص١٠٥.
[٣] ينظر: مايكل برانش: النقد الأيكولوجي، ص٤٧.

وسمعت من ثقات أن شخصًا غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار، وحمل إليها عجلاً رباه فيها حتى كبر، ونصب فيها ساقية، كان الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر، وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرهما، وقد أثمرت كلها، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع من الزهور الأخرى"[١]، يعبر الوصف عن مظهر من مظاهر التفاعل مع منظومة الطبيعة الحرص على الزراعة، فالمكان ليس بالقرية الزراعية بل المدينة، لكن الانتماء إلى البيئة جعل من أسطح البنايات حدائق خضراء تزهى بالأزهار والثمار، فامتد التفاعل مع البيئة للحجر والشجر والحيوان، وهذه الساقية التي ابتكرها الزارع حرصًا منه على ممارسة زراعية مستقرة.

وتظهر علاقة الألفة جلية بين الإنسان والبيئة في وصف مظاهر الاحتفال بفتح الخليج التي وصفها خُسرو بدقة، فبدا الخليج كأنه شخص ذو جاه يخرج السلطان خصيصًا لاستقباله مع حاشيته، فيبدو وكأنه قد "أبطل مركزية الذات البشرية وأنزلها منزلة مساوية للطبيعة"[٢]؛ مما يؤكد فكرة الكاتب عن مثالية الحاكم، ويعزز من حجته، وبذلك يتحقق التأثير النفسي على المتلقي للإقناع بمثالية الحاكم وتميزه عن سائر الحكام والسلاطين في تلك الفترة.

٣-الاهتمام بالبيئة المستدامة:

من خلال نصوص سفر نامه يمكن ملاحظة بعض الأفكار المتعلقة بالاستدامة، يقول على سبيل المثال: "وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار، وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها، وقد نصبت السواقي ليها، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات"[٣]، فالاعتماد على الآبار وتوظيفها لري البساتين والأشجارفي المدينة، كذلك نصب السواقي كلها وسائل الغرض منها خلق بيئة مستدامة، وتعزيز الإنتاج الزراعي.

كما يصف خُسرو استخدام نظم الصهاريج في مدينة (تنيس)، حيث يستفيد السكان من مياه النيل بطرق تقلل من هدر المياه، وتضمن توزيعها العادل على الناس، والحفاظ

---

[١] سفر نامة، ص١١٧.
[٢] مايكل برانش: النقد الأيكولوجي، ص٤٢.
[٣] سفر نامة، ص١٠٦.

على الحياة في المدينة، يقول خُسرو: "حينما يزيد ماء النيل يبعد الماء الملح من حول تنيس، بحيث يصبح ماء البحر عذبا حتى عشرة فراسخ حولها وقد بنوا بجزيرة تنيس ومدينتها صهاريج عظيمة تحت الأرض وهي قوية البنيان وتسمى المصانع، فحين يزيد ماء النيل ويطرد الماء الملح من هناك، تملأ هذه المصانع من ماء النيل الذي يجرها اليها، وماء هذه المدينة من تلك المصانع التي تمتلىء وقت زيادة النيل، ويستعمل السكان هذا الماء حتى السنة التالية، وكل من لديه ماء فوق حاجته، الفائض لغيره"(١).

وعن استخدام القنوات لتوفير المياه بشكل دائم، يصف خُسرو قرية (مطلون) في مدينة (الخليل) بالقدس قائلًا: "قرية مطلون، وهى موقوفة عليه مع قرى كثيرة، وفى هذه القرية عين ماء تخرج من الصخر يتفجر ماؤها رويدا رويدا، وهو ينقل من مسافة بعيدة بواسطة قناة إلى خارج القرية، حيث بنى حوض مغطى يصب فيه الماء فلا يذهب هباء حتى يفي بحاجة أهل القرية وغيرهم من الزائرين بفعالية إلى الأراضي البعيدة عن النهر" (٢).

ومما يعزز فكرة الاستدامة في النص حدث خُسرو عن المزروعات في مصر، يقول: "رأيت في يوم واحد هذه الفواكه والرياحين: الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والنارنج والليمون والتفاح والياسمين والريحان الملكي والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليلج والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر والبنجر"(٣)، ولا شك أن هذا الوعي البيئي انعكس على الانتاجية لدرجة أن يرى خُسرو في يوم واحد مجموعات كثيرة ومتنوعة من الثمار والزروع، كل ذلك لم يتوفر لولا الاهتمام ببيئة مستدامة، وتظهر هذه الملاحظات في سفر نامه اهتمام خُسرو بالتفاصيل البيئية والزراعية؛ ما يعكس تقديره لأهمية الاستدامة في الزراعة، وبذلك ترتبط فكرة الاستدامة بالاستقرار والشعور بالأمان، وتعزيز حالة الطمأنينة التي عاشها خُسرو في مصر في ظل حكم واعي أرسى حاكمه أنظمة اجتماعية واقتصادية وسياسية عادلة وجعل من مصر مدينة خُسرو الفاضلة التي وجد فيها ضالته

(١) سفر نامة، ص٩٥.
(٢) سفر نامة، ص ٨٥،٨٤.
(٣) سفر نامة، ص ١١٨، ١١٩.

المنشودة، بالتالي ستلقي هذه الرؤى بانعكاساتها على المتلقي الذي ستعتريه مشاعر الإعجاب، وتتولد في ذهنه صورة المدينة الفاضلة التي رسمها خُسرو عن مصر.

ثالثًا: جمالية التناص البيئي ودوره الحجاجي في رحلة ناصر خُسرو(سفر نامه):

ورد التناص غير المباشر في سياق الحديث عن نيل مصر الذي هو شريان الحياة فقد أدى التناص وظيفة هامة في الإعلاء من الإحساس بالطبيعة وتعطيل مركزية الإنسان وهدم سيادته، حيث يستعرض خُسرو ما رآه من سلوك المصريين عند هبوط منسوب نهر النيل: "كلما قلّت الزيادة، فإن النيل ناقص، فتصدقوا ونذروا النذور"[١]، وقد استحضر المشهد حديث النبي صل الله عليه وسلم: (حصِّنوا أموالكم بالزكاةِ وداوُوا مرضاكم بالصدقةِ وأعدُّوا للبلاءِ الدعاءَ)[٢]، فالمريض هو النيل الذي يتصدق عنه المصريون كي يسترد عافيته، ويعود منسوبه في الزيادة، فقد حقق التناص تصدير صورة ذهنية حية للمتلقي تمثلت في تجسيد العلاقة الإيجابية بين الناس والطبيعة؛ حيث يستنتج المتلقي من خلالها أن هذا السلوك لم يأت من فراغ، بل من سلطة حاكمة عملت على تربية الضميرالإنساني بدلاً من فرض الهيمنة والإخضاع والإذلال؛ مما أسهم في خلق مجتمع إنساني تحكمه سلطة والدين القويم، ويتوافق مع احتياجات خُسرو النفسية والفكرية، فقد أضفى التناص غير المباشر سلطة دينية على الوصف، من شأنها توجيه المتلقي لتطبيق تعاليم الدين والاقتداء بسنة النبيﷺ، بالإضافة للاقتناع بضرورة التربية الدينية وأنها سبيل الحضارة والرقي.

---

[١] **سفر نامة، ص٩٨.**

[٢] **أخرجه الطبرا**ني (١٠/١٥٧) (١٠١٩٦)، وابن عدي: الكامل في الضعفاء (٦/٣٤١)، وأبو نعيم: حلية الأولياء (٢/١٠٤).

الخاتمة:

يتضح مما سبق أن المكون البيئوي ليس مجرد خلفية للنص الحجاجي، بل يعد عنصرًا فاعلاً له دوره المهم في توجيه الخطاب وتعزيز قوته الإقناعية، ومن دراسة السياق البيئي والحضاري، تتكشف مواقف الكاتب وآراؤه، وتُفهم أساليبه الحجاجية بشكل أعمق، لذا، فإن تحليل الخطاب الحجاجي لا يكتمل إلا بوعي شامل للسياق الذي وُلد فيه النص، بيئيًا وحضاريًا.

ولقد تجلى المكون البيئوي عن ابن جبير في وصفه للطبيعة، والبحار، والعمران، والمدن، والمساجد، والطقوس اليومية، ويظهر تأثره الواضح بجماليات البيئة الأندلسية ومقارنتها بما يراه في المشرق، لكنه لم يكتف بالوصف، بل يستثمره لانتقاد ما يراه من خلل اجتماعي أو ديني، كما استغل مظاهر العمران في مصر للثناء على صلاح الدين الايوبي وإثبات كفاءته.

كذلك أولى ناصر خُسرو اهتمامًا بالغًا لمكونات البيئة والحضارة في رحلته، وبخاصة فيما يتعلق بمصر مدينته الفاضلة، فنجده يتحدث عن نهر النيل والزراعة وموارد الصناعة في مصر، والانعكاس الحضاري لتلك الموارد التي تمثلت في وجود العمران وتوافر الإحساس بالأمان وحضور النظام في إدارة الدولة، هذه الاهتمامات عكست رؤية خُسرو البيئية، حيث تجلى المكون البيئوي لديه في ثنائية النظام/الفوضى؛ إذ أصبحت البيئة في النص أداة لتقويم النظام السياسي والديني، كما صارت إحدى أدوات الإقناع التي وظّفها للتأثير على المتلقي وتوجيهه للاقتناع بوجهة نظره في الحاكم والدولة، مثال: وصفه للاهتمام بالزراعة في القاهرة، ولدقة التنظيم العمراني في مصر الفاطمية أصبح وسيلة حجاجية للثناء على الحاكم.

كما رأى خُسرو الحضارة من زاوية فلسفية/ دينية عميقة، وربطها بالعدل والعلم والنظام. فالمكون الحضاري عنده ليس سطحيًا، بل يتأسس على رؤية عقلانية تنظر إلى البيئة وحسن استغلالها كجوهر الحضارة، وتُوظف هذه الرؤية في حجاجه لتأكيد تفوق النموذج الفاطمي في الحكم.

أدّى التناص دورًا حجاجيًا بارزًا في رحلتي ابن جبير وناصر خُسرو (سفر نامه)، فلم يقتصر دوره على التزيين اللغوي، بل كان وسيلة لإثبات الرأي والتأثير في المتلقي.

أهم النتائج:

١. وظف ابن جبير وخُسرو المكونات البيئية والحضارية في إقناع المتلقي والتأثير عليه، وتشكيل خطاب حجاجي يعكس رؤاهم وأفكارهم، حيث برز المكون البيئوي والحضاري كعنصر أساسي يعكس رؤى الكاتبين وانطباعاتهما إزاء الواقع المحيط به.

٢. وظّف ابن جبير الخطاب المباشر القائم على المقارنة بين الواقع والمثال الديني، في حين استخدم ناصر خُسرو خطابًا عقلانيًا فلسفيًا.

٣. البيئة في النصين ليست عنصرًا محايدًا، بل وظّفت كأداة من أدوات الكاتب في الإقناع والتوجيه؛ مما منح أدب الرحلة بُعدًا خطابيًا مهمًا.

٤. تضمّن المكون الحضاري دورًا مهمًا في تكوين الرؤية الفكرية لكلا الكاتبين، ويظهر ذلك من خلال اختيارهما لما يصفانه وكيف يصفانه.

أهم المقترحات:

- ضرورة إجراء دراسات مماثلة في نصوص رحلية أخرى.
- توسيع مجال الدراسة لتشمل المقارنة مع نصوص رحلات غربية لفهم الرؤية المقارنة للحضارة والبيئة.
- إدماج هذا النوع من الدراسة والمقارنة في مقررات تحليل الخطاب أو البلاغة الحديثة.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

أولاً: المصادر:

- حاجي خليفة: كشف الظنون، ط. دار إحياء التراث العربي، لبنان، ج٢، د. ت.
- خير الدين الزركلي: الأعلام، ط. دار العلم للملايين، ط ١٥، ج٥، ٢٠٠٢م.
- محمد بن أحمد بن جبير: رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، ط. مكتبة مصر، مصر، ١٩٩٢م.
- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار معروف، ط. مؤسسة الرسالة، ط ٣، ج ٢٢، ١٩٨٥م.
- محمد لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها، تحقيق: إحسان عباس، ط. دار صادر، لبنان، ج٢، ١٩٩٧م.
- محمد لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: يوسف علي طويل، ط. دار الكتب العلمية، لبنان، ج٢، ٢٠٠٣م.
- ناصر خُسرو: سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، ط. دار الكتاب الجديد، لبنان ، ١٩٨٣م.

ثانيًا: المراجع:

- جرج جيرارد: النقد البيئوي، ترجمة: عزيزي صبحي جابر، ط. هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠٠٩م.
- جيليكا وشيتش: النقد البيئوي دراسة بينية في الأدب والبيئة، ترجمة: سناء عبد العزيز، مجلة فصول، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع١٠٢، ٢٠١٨م.
- حصة البادي: التناص في الشعر العربي الحديث، ط. دار كنوز المعرفة العلمية، عمّان، ٢٠٠٩م.

- أم الخير سيلت، علي دغمان: سردية النص الرحلي بين التاريخية والأدبية "رحلة ابن جبير" أنموذجًا، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، جامعة الوادي، الجزائر، مج ٦، ع ٢،٢٠٢٣م، ص.ص ٤٩- ٦٣.
- ديفيد كارتر: النظرية الأدبية، ترجمة: باسل المسالمة، ط. دار التكوين، سوريا، ٢٠١٠م.
- زكي محمد حسن: الرحَّالة المسلمون في العصور الوسطى، ط. مؤسسة هنداوي، مصر، ٢٠١٢م.
- سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م.
- شاييم بيرلمان وتيتكا: المصنف في الحجاج، ترجمة: محمد الولي، ط. دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ٢٠٢٣م.
- شوقي ضيف: الرحلات، ط. دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٥٦م.
- عبد الحميد أحمد الحسامي: الضباب أتى الضباب رحل، قراءة من منظور بيئي، مجلة علامات في النقد الأدبي، مج ١٧، ج ٦٨، فبراير٢٠٠٩، ص.ص ٢٤٥-٣٠٣.
- عبد الرحمن عيسوي:علم النفس البيئي، ط. منشأة المعارف، مصر، ١٩٩٧م.
- عبير جودت حافظ عبدالحافظ: النقد البيئوي ونظرية الأدب، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر،٢٠٢٣م.
- فاطمة النجار، أبو النور مصباح: دور الجامعات المصرية في تحقيق الاستدامة البيئية، مجلة كلية التربية، بنها، ع ١٣٦، ج٣، ٢٠٢٣م، ص.ص ٦٩٩- ٧٦٢.
- مايكل برانش: النقد الإيكولوجي، الطبيعة في النظرية والممارسة الأدبيتين، ترجمة: معين رومية، دورية نوافذ، ط. النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، ع ٣٦، ٢٠٠٧م.

- محمد أبو الفضل بدران: أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية، ط. المجلس الدولي للغة العربية، الإمارات، ٢٠١٥م.
- مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ط. دار اليقظة، بيروت، ١٩٦٤م.
- هاني علي سعيد محمد: النقد الأدبي البيئي، قراءة في مُدوّنة الدراسات العربية البيئية، وممارسة تطبيقية على قصة "رأيتُ النخل" لرضوى عاشور، ط. مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة كفر الشيخ، ع ٢٦، ٢٠٢٢م، ص.ص ٤٥٦- ٤٩١.